(٢) بائية ابن القيسراني

وهو يقترب بها من حس هذه المعارضة بما نظمه من صور مدحية فى عماد الدين زنكى ، وتصوير انتصاراته على الفرنج حتى تحولت اللوحة لديه إلى موقف حربى يشبه ما كان من صور أبى تمام . ولكن المعارضة هنا تظل تحتمل مفارقات حول ما رأيناه من كثافة القصد لدى الشاعر المعارض لموضوع معارضته ، فإذا بابن القيسرانى يقدم العزائم والهمم ، وفى نفس الوقت يسخر من الكتب ، ويرفض ما تدّعى القضب ، فيضع الرأى والهمة والعزم فى مفترق الطرق منذ استهلال قصيدته :

هذى العزائمُ لا ما تدّعى القُضُبُ ... وذى المكارم لا ما قالت الكُتُبُ

وهذه الهمم اللاّتى متى حظيت ... تعثرت خلفها الأشعارُ والخُطَبُ

صافحت يا ابن عماد الدين ذِرْوَتها ... براحة للمساعى دونَها تَعَبُ

إذ أراد أن يقفز إلى مدح عماد الدين بما لديه من عزم ومكرمة وهمة لم تعرفها كتب التاريخ من قبل ، فسيطرت عليه صيغة المادح على عكس منطلق الحس الانفعالى عند أبى تمام منذ سيطرت عليه لهجة المحارب منذ حديث السيف في المطلع ، ولذا يستمر الشاعر في رصد صفات ممدوحه موزّعة بين أصالة نسبه ، وهمته المتأصلة الموروثة ، وثبات قلبه ، وكأنه يقتحم دائرة الفضيلة فى إطار الموروث من المدح ، فإذا ما بلغ الإيقاع الحربى الحقيقى ، أعاد إلى السيف مكانته التى صورها أبو تمام من قبل :

أغْرَتْ سيوفُك بالإفرنج راجفةً ... فؤاد رُومِيَّةَ الكُبْرى لها يَجِبُ

وهو ما تكرر نظيره في تصوير موقفه من قائد الإفرنج :

ضربَت كبشَهُم منها بقاضية ... أودي بها الصُّلْبُ وانحطّت بها الصُّلُبُ

وكأن الشاعر لم ينس - على طريقة أبى تمام أيضاً - أن يجعل غضبة الرجل دينية خالصة لا تبغى كسبا ولاغنيمة بل تبغى احتسابا دينيا :

غضبتَ للدين حتى لم يُفْتكَ رضا ... وكان دين الهُدى مرضاتُه الغَضَبُ

مَنْ كان يغزوُ بلاد الشرك مُكْتَسِباً ... من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ

وربما ملأت عليه ذهنه صورة « تيوفيل » ، وهو يوثر الفرار فيبدو حائرا مضطربا من